محاضرات مادة التصوير الفني في القرآن الكريم – سنة ثانية ماستير لغة ودراسات قرآنية - للأستاذ الدكتور قويدر قيطون

المحاضرة التاسعة : الفاصلة القرآنية.

1- **مفهوم الفاصلة:** هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع ، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام ، وتحقيق فائدة ،ا وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية قد فصل بينها وبين ما بعدها.
2- **طرق معرفة الفواصل القرآنية:**لمعرفة مواطن الفواصل طريقان: توقيفي وقياسي.

الأول: التوقيفي :روى أبو داود عن أم سلمة لما سئلت عن قراءة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: (كان يُقطّع قراءته آيةً آية) وقرأت "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" تقف على كل آية. فمعنى (يقطع قراءته آية آية) أي: يقف على كل آية. وإنما كانت قراءته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك ليُعلم رءوس الآي؛ فما وقف صلى الله عليه وسلمَ عليه دائما تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائما تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لبيان الوقف التام أو للاستراحة.

الثاني: القياسي : فالقرآن محل فصل ووصل؛ والوقف على كل كلمة جائز، ووصل القرآن كله جائز. فاحتاج القِياسِيُّ من الناس إلى طريقٍ تُعرِّفُه موطن الفاصلة، وذلك بأن يعرف أن فاصلة الآية هي ما يقابل السجع في النثر وقافية البيت في الشعر. مع الأخذ في الاعتبار أن ما يذكر من عيوب القافية من السناد والإقواء والتوجيه ونحوه لا يُعَدُّ عيبًا في الفاصلة، لذا جاز الانتقال في الفاصلة من نوعٍ إلى آخر بخلاف قافية القصيدة. ومن ثم ترى: "يَرْجِعُونَ" مع: "عليم" و: "الْمِيعَادَ "مع: "الثَّوَابِ" و: "الطَّارِقُ" مع: "الثَّاقِبُ". وهكذا.

3- فوائد الفواصل القرآنية:

أولا: اطراد الإيقاع :إذ نجد القرآن يغير من بنية الكلمة كي يطرد الإيقاع ويتحقق التطريب كما في قوله تعالى: {وَطُورِ سِينِينَ} وهو طور سيناء لقوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ}، لكن (سينين) تطّرد إيقاعيًا مع (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ...)، وكذلك يحذف حرفا كي يطّرد الإيقاع كقوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} وأصل الفعل (يسري)، فحُذفت لام الفعل (الياء) دون جازم، وبقيت كسرة الراء دالة عليها؛ وما ذاك إلا ليطّرد الإيقاع باتحاد صوت الراء (الساكن حال الوقف) في الفواصل قبلها وبعدها. وكذلك تأخير ما أصله أن يقدم كقوله تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} في سورة طه، لأن مبنى الفواصل فيها على صوت الألف، وأصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول لكن أخر الفاعل وهو موسى لأجل رعاية الفاصلة، وللتأخير حكمة أخرى قيل إنها تتمثل في أن النفسَ تتشوق لفاعل أوجس.

ثانيًا: التمكن من التطريب :لذلك خُتمت أكثر مقاطع الفواصل بحروف المد واللين وبُنيَ أكثرها على الميم والنون لما فيهما من غُنة وتطريب؛ ففي ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون تطريب يجري على عادة العرب؛ فقد كان بعض العرب يترنمون ويمدون أصواتهم بالقوافي تطريبًا، يقول سيبويه رحمه الله: (أما إذا ترنموا فإنهم يُلحِقون الألفَ والواو والياء ما يُنوَّن وما لا يُنوَّن لأنهم أرادوا مد الصوت).

ثالثا: الوفاء بالمعنى :

أنواع الفواصل:

أولا: تقسيم الفواصل باعتبار المتماثل والمتقارب في الحروف:

مثال المتماثلة في حرف الفاصلة، قوله تعالى: "وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ"؛ إذ تكرر حرف الراء مردوفًا بالواو، وقوله تعالى "طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى. تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى. الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى"

محاضرات مادة التصوير الفني في القرآن الكريم – سنة ثانية ماستير لغة ودراسات قرآنية - للأستاذ الدكتور قويدر قيطون

ومثال المتقارب في الحروف قوله تعالى: "الحمد لله رب العالمين. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ"؛ إذ الميم والنون متقاربان. وقوله تعالى: "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ"؛ إذ الدال والباء متقاربان.

ويرى الزركشي أن فواصل القرآن الكريم لا تخرج عن هذين القسمين بل تنحصر في المتماثلة والمتقاربة ؛ وبناء على ذلك رجّح مذهب الشافعي على مذهب أبي حنيفة في عد الفاتحة سبع آيات مع البسملة وذلك لأن الشافعي المثبت لها في القرآن قال: "صِرَاطَ الَّذِينَ" إلخ السورة آية واحدة وأبو حنيفة لما أسقط البسملة من الفاتحة قال: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" آية و"غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ" آية. قال: ومذهب الشافعي أولى لأن فاصلة قوله:" صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" لا تشابه فاصلة الآيات المتقدمة ورعاية التشابه في الفواصل لازم وقوله: "أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" ليس من القسمين فامتنع جعله من المقاطع وقد اتفق الجميع على أن الفاتحة سبع آيات لكن الخلاف في كيفية العَدّ.

لكنني أرى أن هناك نوعًا آخر هو الفواصل المنفردة وأعني بها أن ترد فاصلة ليس لها نظير في بقية السورة من حيث: الإطلاق والتقييد، أو حرف الروي (حرف الفاصلة)، أو الردف، أو التأسيس. وقد يتحقق انفراد الفاصلة بأحد تلك الأنواع أو باجتماع بعضها في فاصلة واحدة. ومن ثمّ لا يُعد الرأي السابق الذي رجح به الزركشي مذهب الشافعي على مذهب أبي حنيفة – لا يعد حجة ملائمة؛ لأن القرآن يحتوي كثيرًا من ذلك النوع من الفواصل المنفردة التي غفلَ عنها كثير من المفسرين. وربما كان الترجيح مراعاة للملاءمة الصوتية بين الفواصل المتقاربة، لا لنفي وجود هذا النوع من الفواصل المنفردة في القرآن.

ثانيًا: تقسيم الفواصل إلى متوازٍ ومُطرَّف ومتوازن:

قال الزركشي: وأشرفها **المتوازي** وهو أن تتفق الكلمتان في الوزن وحروف السجع كقوله تعالى: "فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ"

والمطرف أن يتفقا في حروف السجع لا في الوزن كقوله تعالى: "مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا"

والمتوازن أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط دون حرف الفاصلة مثل قوله تعالى: "وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ". وقد تتوازن كلمتان لا كلمة واحدة في الفاصلة نحو قوله تعالى: "وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" فلفظ الكتاب والصراط متوازنان ولفظ المستبين والمستقيم متوازنان.

ثالثا: تقسيم الفواصل إلى فواصل متمكنة وموشَّحة ومُوغِلة ومُصدَّرة:

فهذه أربعة أشياء: التمكين والتوشيح والإيغال والتصدير:

الأول: التمكين :وهو أن يُؤتى قبلها بتمهيد تأتي به الفاصلة متمكنةً في مكانها، مستقرةً في قرارها، مطمئنةً في موضعها، غيرَ نافرة ولا قلقة، متعلقًا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما بحيث لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم، ومن أمثلته قوله تعالى "وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً"، فإن الكلام لو اقتصر فيه على قوله: "وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ" لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم ولم يبلغوا ما أرادوا وأن ذلك أمر اتفاقي فأخبر سبحانه في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة ليزيد المؤمنين يقينا وإيمانا بأنه الغالب الممتنع وأن حزبه كذلك، وليعلم الذين كفروا أن تلك الريح التي هبّت ليست اتفاقا بل هي من إرساله سبحانه على أعدائه.

الثاني: التصدير :وهو أن تأتي كلمة في صدر الآية ثم تختم الآية بفاصلة من مادتها المعجمية وترتبط بها بعلاقة دلالية هي السببية في الغالب، نحو قوله تعالى: "لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى". وقوله: "فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً". وقوله: "خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ". وقوله: "فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ" وقوله: "فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ".

محاضرات مادة التصوير الفني في القرآن الكريم – سنة ثانية ماستير لغة ودراسات قرآنية - للأستاذ الدكتور قويدر قيطون

الثالث: التوشيح :ويسمى به لكون نفس الكلام يدل على آخره، فنزل المعنى منزلة الوشاح ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح؛ ولهذا قيل فيه إن الفاصلة تعلم قبل ذكرها. كقوله تعالى: "ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"، وقوله عز وجل: "وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ" فإنه من كان حافظا لهذه السورة متيقظا إلى أن مقاطع فواصلها النون المُردَفة وسمع في صدر هذه الآية: "وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ" علم أن الفاصلة (مظلمون) فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم.

الرابع: الإيغال :وسمى به لأن المتكلم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذ فيه وبلغ إلى زيادة على الحد. يقال أوغل في أرض كذا: إذا بلغ منتهاها؛ فهكذا المتكلم إذا تم معناه ثم تعداه بزيادة فيه فقد أوغل. ومنه قوله تعالى: "وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" فإن المعنى قد تم بقوله: "وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ" ثم أراد أن يُعلم تمامُ الكلام بالفاصلة فقال: "إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" ؛ ذلك أنه لما أخبر الله تعالى عنهم أنهم صم لا يسمعون أراد تتميم المعنى بذكر توليهم في حال الخطاب لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الإشارة، فإن الأصم يفهم بالإشارة ما يفهم السميع بالعبارة إذا كان مقبلا، فإذا أدبر عنك فقد فاتت كل سبل الإفهام.

الأسرار البلاغية للفواصل :

يرى فريق من النحويين والمفسرين أن للفواصل القرآنية قيمةً جماليةً إيقاعيةً، وأنها لا تدل بالضرورة على معنى، ويرى فريق آخر أن لكل فاصلة قرآنية دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه. قد نتدبره فنهتدي إلى سره البياني ، وقد يغيب عنا فنُقِرُّ بالقصور عن إدراكه، إلا أن المتفق عليه أن لكل فاصلة معنى وسرًّا بلاغيًّا، مع الاهتمام بدورها الإيقاعي بالطبع، والتماس دلالة ملائمة للإيقاع دون تعسف.

من ذلك ما جاء في قوله تعالى: (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

تتناول الآيات العذاب الذي يمس الكافرين يوم القيامة ، فأيديهم تربط بالأغلال ، وتقيد بالسلاسل ، ثم يسحبون منها ليرموا في النار، وقد جاءت الفواصل كالآتي : (يسحبون- يسجرون – تشركون – الكافرين)

قال ابن كثير :" إن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية يسحبون على وجوهه تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم " ويقال لهم تبكيتا : أين الأصنام التي عبدتموها من دون الله ، فيجيبون أنها غابت عن العيون ، وأنهم ماعبدوا شيئا .

والفاصلة " يسحبون" من حيث المعنى متربطة بالسلاسل ومتصلة بقوله " في الحميم " ، والفاصلة " يسجرون " أفادت التوكيد بالعذاب في جهنم المحرقة ، لأنه لو وقفت الآية عند قوله تعلى " في النار" لبقي المعنى محتاجا إلى ثبات واستمرار وحبس وقرار ، فجاءت الفاصلة لتوضح هذا المعنى ، كما أن الفاصلة " تشركون " متصلة بقوله تعالى " من دون الله " لبيان ضلالهم عن الحق ، والابتعاد عن التوحيد ، ومن ثمّ وجب الوقف على الفاصلة برغم الاتصال..

ومثل ذلك قوله تعالى: (إن تعذّبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أن العزيز الحكيم)

فمن يقرأ الآية يرى بان السياق يوحي بالغفران ، وأن الآية لم تنته بما توحي به الدلالة الظاهرة ، ولعله يرى أنها ستنتهي بـ (غفور رحيم) إلا أن الآية ختمت بقوله (العزيز الحكيم) لبيان أن من يستحق العذاب لايغفر له إلا من كانت بيده السلطة العليا ولا عزّ فوق عزته ، وأن يتصف مع ذلك بالحكمة التي تضع الأمور في موازينها وأقدراها .

المحاضرة العاشرة : جماليات التصوير في القصة القرآنية

إن حظ القصة في القرآن الكريم حظ وفير ، ومتعدد المجالات ، فالقرآن الكريم نزل باللغة العربية وسيلة القوم إلى التواصل والفهم وأداتهم البليغة في التعبير وصولا إلى فن راق ، وكما أن القرآن تحدى العرب في القول وهم فرسان

محاضرات مادة التصوير الفني في القرآن الكريم – سنة ثانية ماستير لغة ودراسات قرآنية - للأستاذ الدكتور قويدر قيطون

الشعر وأربابه ، فقد تحداهم أيضا في القصة؛ ذلك أن تراثهم النثري قبل الإسلام يمتلئ بالقصص والحكايات والأساطير والأخبار والأيام ، ومن ثَّم لم يكن عجيبا أن يحفل القرآن الكريم بألوان متعددة من القصة كنموذج صادق لما يجب أن تكون عليه القصة.

وإن كانت مسألة معرفة العرب للقصة قد أسالت حبر كثير من الدارسين والباحثين، وأثير حولها جدال واسع بين من يثبت ذلك، ومن ينفيه ، ودون أن أتطرق إلى من أثبت ومن نفى نأيا بنفسي عن هذه المعارك التي أعتقد أنها قد أخذت حظا كبيرا من النقاش، وحتى لا يأخذني هذا بعيدا عن صلب دراستي؛ يمكنني أن أقول أن العرب قد عرفوا هذا اللون النثري. والمسألة في رأيي محسومة بأمرين:

أما الأمر الأول فباعتبار أن القرآن الكريم قد نزل وفق طرائق العرب في التعبير ، وليس بالمعقول أن يزدحم القرآن بهذا الكم الكبير من القصص ،وأن يعتمد على القصص في تثبيت أمور هامة من أمور الدين دون أن يكون للعرب رصيد من القصص الذي نسجته من قبل أن يأتيها القرآن .

وأما الأمر الآخر فإن العرب كما يقول زكي مبارك أمة « كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث ،وأسماء، وخرافات ،وأساطير، يقضون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم من حيث لا يقصدون ». فالإنسان العربي كغيره من البشر عاش الصراع وخاض غمار الحياة ومع دوامة الحياة ،وصراعها تحدث القصص، وتحل المآسي وتقع النكبات ، وأيام العرب حافلة بالصراع المهول فحروب القبائل العربية فيما بينها مشهورة معروفة منها ما استمر أكثر من أربعين سنة ، ولا شك أن هذا التناحر يكون مدعاة لحكايات، وقصص تروى وتحكى .

وعلى ضوء هذا يقول فاروق خورشيد أن « العلماء مجمعون على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة، ومتعددة ، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ، والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكهم،وفرسانهم، وشعرائهم ، وكتاب "الأغاني " لأبي فرج الأصفهاني يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذي تناقله الناس عن شعرائهم، ومجالسهم ،وملوكهم ، وليس كتاب الأغاني هو المرجع الوحيد في هذا؛ بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال "الأغاني" و" الشعر والشعراء" وكتب الطبقات بما لا يدع مجالا للشك في أن الفن القصصي، قد تناول الحياة الجاهلية في كل مظاهرها».

والقصة كما يعرفها أحد الدارسين هي :« عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء محاولا أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه» ، ولكننا حينما نستعرض ما ورد في القرآن من قصص نجد أن هذا التعريف بعيد كل البعد عن مفهوم القصة القرآنية ذلك أنها ليست خاطرة في ذهن الله ، ولا تسجيلا لصور تأثرت بها مخيلته، ولا تسجيلا لعواطف اختلجت في صدره أراد أن ينقلها إلى الآخرين . بل إن القصة القرآنية نمط إلهي فريد يسموا عمّا هو مطروح من أنماط بشرية مختلفة؛ ذلك أن القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، وكل ما تضمنه جاء لتحقيق هدف ديني وإن اتخذ الفن مطية لذلك.

إن القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وسير حوادثه كما هي الحال في القصص الفني، إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل وهو

التشريع، وبناء الفرد والمجتمع، وأن القصة التي ترد فيه لا يختلف في غايتها عن المثل الذي يضربه الناس

<u>الخصائص الفنية للقصة القرآنية:</u>

نقف هنا على جديد في أسلوب القرآن الكريم المعجز و هو تجاوب أسلوب القصص الفني في القرآن مع فن القصة المعاصر ، ونوضح ذلك من أربعة أوجه وهي أعمدة الخصائص الفنية للقصة:

<u>أولا : تنوع طريقة العرض:</u>

وقد لاحظنا في قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء في عرض القصة على النحو التالي:

1- مرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها . وذلك كطريقة أصحاب الكهف فالتلخيص في بدايتها كان مقدمة مشوقة للتفصيلات.

2- ومرة تذكر عاقبة القصة و مغزاها ، ثم تبدأ القصة من أولها و تسير بتفصيل خطواتها.

ومن ذلك : قصة يوسف عليه السلام فهي تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم ....

ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هي تأويل للرؤيا و لما توقعه يعقوب من ورائها ، حتى إذا تحققت أنهى القصة ولم يسر فيها كما سارت التوراة بعد هذا الختام الفني الدقيق.

3- ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، و يكون في مفاجآتها الخاصة ما يغني . مثال ذلك : قصة مريم عند مولد عيسى عليه السلام : ومفاجآتها معروفة .. وكذلك قصة سليمان مع الهدهد و النمل و بلقيس.

-4ومرة يحيل القصة تمثيلية . فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض ، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها . وذلك كالمشهد الذي يصوره القرآن من : قصة ابراهيم و اسماعيل في بنائهما للكعبة المشرفة.

ثانيا : تنوع طريقة المفجأة:

1- فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل و عن النظارة ، حتى يكشف لهم معا في آن واحد .. مثال ذلك : قصة موسى مع العبد الصالح العالم في سورة الكهف

2- ومرة يكشف السر للنظارة ، و يترك أبطال القصة عنه في عماية ، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر ، و أولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين.

و أغلب ما يكون ذبك في معرض السخرية ، ليشترك النظارة فيها ، منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين!

وقد شاهدنا مثلا من ذلك في قصة أصحاب الجنة " إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون " وبينما نحن نعلم هذا ، كان أصحاب الجنة يجهلونه : "فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا و هم يتخافتون... "وقد ظللنا نحن النظارة نسخر منهم وهم يتنادون و يتخافتون ، و الجنة خاوية كالصريم حتى انكشف لهم السر بعد أن سخرنا نحن منهم" قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون" وذلك جزاء من يحرم المساكين.

3- ومرة يكشف بعض السر للنظارة وهو خاف على البطل في موضع وخاف على النظارة و البطل في موضع آخر في القصة الواحدة مثال : قصة عرش بلقيس فمفاجأة أنه صرح ممرد من قوارير ظلت خافية علينا و على بلقيس حتى فوجئنا بسرها معها.

4- ومرة لا يكون هناك سر، بل تواجه المفاجأة البطل و النظارة في آن واحد فقد فوجئنا مع السيدة العذراء مريم بالمخاض.

ثالثا : الاعتناء بفن التصوير:

ويظهر واضحا في رسم الشخصيات ، فشخصية موسى تظهر بصزرة ذلك النبي الواثق بقضيته فهو يواجه تهديد فرعون باللجوء إلى الله تعالى . وشخصية الرجل المؤمن تظهر من خلال الحوار شخصية الرجل الحكيم الذي يتبع المنطق المعقول مع اثارة عواطف قومه بالنداء المتكرر (يا قوم ... يا قوم ...) وشخصية فرعون تبدو بجبروتها وخبثها و إصرارها على الباطل) يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب(

رابعا : حذف الثغرات بين الوقائع مما لا حاجة إليه لفهم القصة : وذلك بطريقة فنية عجيبة اخترق بها القرآن أستار القرون ليأتي متلائما مع العرض التمثيلي الذي نما في هذا العصر إلى أبدع أسلوب وصل إليه الأدب.

ومن تأمل سائر قصص القرآن تبين له ما عرضناه هنا وتذوق إعجاز أسلوب القرآن في القصة ، وزاد إحساسه بذلك إذا لاحظ البون الهائل بين القصة في الأدب العربي و آداب العالم في عصر نزول القرآن وما تطور إليه فهمنا في العصر الحديث

المحاصرة الحادية عشرة : الإيقاع القرآني وجمالياته التصويرية

1- أسرار الإيقاع وجماله في القرآن الكريم:

الإيقاع من المظاهر البارزة في التراث العربي، له خصائصه وسماته التعبيرية والدلالية مما جعله موضع اهتمام لدى القدامى، كونه من معالم لغة القرآن لما له من صور جمالية. ولأهميته انكبّ القراء على الاقتراب منه لإظهار قدراتهم الإبداعية تنسجم مع طريقة قراءاتهم فرسموا دوره، وشخّصوا طابعه القرائي فاستثمروا قيمته التجويدية والدلالية، فلمسوه بصورة واضحة في الأداء لأنّه يحافظ على نمط التلاوة لما يحمله من مقاصد محددة متعاضدة مع لوازم فكرية ظاهرة أو خفية. فهو عنصر اتّسع مداه في أعماق النص القرآني، ووجه من وجوه الإعجاز جيء به لتهذيب السريرة، والخروج من أوهام الغريزة وما يقتضيه المقام مع الحضور الذهني.

فهذا التلوين له علاقة وثيقة بالإحساس توّهله للتجاوب مع نفسية السامع ضمن نسق معين، فهناك إيقاع يبعثه الحزن، وآخر يثير السرور. ، فالنغمة الإيقاعية تلائم الطابع العام للسياق، وتميل إلى الدقة في النطق، وتلتمس أيسر الطرق لذلك.

محاضرات مادة التصوير الفني في القرآن الكريم – سنة ثانية ماستير لغة ودراسات قرآنية - للأستاذ الدكتور قويدر قيطون

والقيمة الجمالية للإيقاع تتولّد عن نظام الحرف واستقرار أصوله وبنيته. فنظام الحرف في اللغة التي نزل بها القرآن الكريم دفعت القراء إلى التفنّن في تصويره، وتزينه عن طريق القراءة للوصول إلى كماله والإحاطة بمخرجه، وصفته ليكون عنصرا يرفع صورة الإيقاع المنبعثة من النّص. وإذا تأملنا في طبيعة الحرف في ميدان النطق، ندرك قيمته في ضبط الأداء السليم، فالحروف تخرج سليمة لا ينتابها أيّ اضطراب. فلا تحقق هذه الظاهرة الصوتية إلا عن طريق تحسين الحروف في سلامة نطقها.

والغاية من معرفة العلاقة بين الكلمات والإيقاع في القراءات القرآنية هو إثبات أثرها النفسي وإن لم تكن مفهومة لدى المتلقي، فلا يجد فيها السامع ضيقا بل يطلب المزيد "وأعجب شيء في أمر هذا الحس الذي يتمثل في كلمات القرآن أنّه لا يسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها، بل هو مقصد في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخللها الملل"

فالمعجزة الصوتية في النص القرآني تجعل الإنسان يدرك أهمية التلوين الصوتي في كلماته وأدائها التصويري الذي يستقرّ في النفس أصواتها المنظومة.، فعند قراءة آيات الترهيب والترغيب نلمس إيقاعا لكلمات الخوف والرجاء تختلف إذا كانت متباعدة. أما إذا كانت متتابعة فإنّ أثرها في النفس مؤكّد للتهدئة، فتوالي آيات الرحمة والعذاب يجعل المؤمن يطلب رحمة الخالق .كما يقوم على تكرير الكلمات بعينها بغية استكمال صورته وجلب النغمة المناسبة له، فتكرار الحروف يرسم صيرورة الإيقاع.

فالكلمات عبارة عن أصوات تأخذ موقعها في الكلام الذي ساق له الجملة. فلابدّ من تحقيق الإيقاع وهذا بإحضار الجمل وما يلائمها من كلمات (الجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي فالسير الإيقاعي للجمل واحدة تلو الأخرى يعطي للآيات التفاعل والتواصل، ويجعله ثابتا بشكل واضح. فتنويع الجمل من المظاهر الجمالية في لغة التعبير الإيقاعي لما له من دور في توسيع القيم الفنّية للجمل في نظام بنائها، واعتدال تراكيبها.

والمتدبّر في كتاب الله يتنبّه إلى ظاهرة وهي أنّ الجمل في أصول أبنيتها تهدف إلى الانسجام في الألفاظ، وكأنّها تريد الإفصاح عن المعاني بالإشارة إلى التنويع في التراكيب. فالإيقاع يقع على مستوى الحروف والكلمات والجمل فهذه المستويات تشكّل النسيج الصوتي في القرآن.

وعند توجيه القراءات نلمس توافقا بين الإيقاع والمعنى، فحسن إفهام المعاني يتحقق عن طريق القراءة المحتكمة للأصول المناسبة. فالإيقاع الهادئ له موضعه الملائم له، والإيقاع الساكن الرقيق له موضعه أيضا. إنّه حقيقة منتشرة في القرآن الكريم، فيها إثبات لوحدة النسيج القرآني، يحتوي لذّات معينة ترتبط بتكوين الإحساس الذّي تدركه الأذهان، ويكوّن صور التعبير الذي يرتكز عليه إدراكنا. وهكذا يضفي التعبير جمالا على الموضوعات التي تثير الاهتمام، إنّه مجسّد بين أساليب التعبير وقيمة المضامين. ففي هذه الحالة يظهر جليّا ما يحسّ به المتلقّي من انفعالات تكون استجابة للمزاج الفطري. فهو مصدر الجاذبية التي يحدثها جمال الأسلوب لما للكلمات من صفات موسيقية منقوشة على النص القرآني، ويتجلى جمالها عن طريق المعاني التي توحي بها كالورع والرجاء.

كما يلعب دورا كبيرا في تسهيل عملية الحفظ، فالإنسان يميل إلى النصوص الإيقاعية، والقرآن جاء متميّزا به فالعامل النفسي هو أساس العلاقة بين القارئ المتذوق والنص، فالقيمة الجمالية تستحوذ على الشعور عن طريق المعاني التي يجد فيها راحة تدرك من خلالها التصوير الفني.

إنّ التنويع في المعاني والتغيير في الأفكار يعطيان الإيقاع قوّة التأثير في المتلقّي، وتجعله يتجاوب مع مشاهد النص القرآني خاصة القصص "إنّ هذا القصص كانت له أهدافه الكثيرة وغاياته المتعددة، فعلى سبيل الإجمال يهدف القصص القرآني إلى تربية نوع الإنسان... وتعميق العقيدة في النفوس ويبصّر بها العقول ."كذلك من سمات هذا التلوين الصوتي أنه يوفّر عنصر التشويق الذي يقذف في النفس الرغبة في التفصيل، والتوق إلى كلّ الأحداث.

إنّ السوّر تأتي متلائمة مع مواضيعها متناسقة الأحداث، فالحوار بين الرسل وأقوامهم له إيقاعه اللائق، فالإشارات الخاطفة، والمواقف المناسبة توقظ المشاعر وتهزّ النفوس.

و الناظر إلى القصص القرآني يحس بأنّ للتّأكيد دورا في جماله لما له فلا تلمس فيها التنافر ولا الاضطراب من وقع على الأسماع، فهو يستمدّ قوّته من تأنّق الموضوعات المصورة المعاني. فلا تجد فيها تنافرا ولا اضطرابا. فالتّأكيد أسلوب الإقناع وينقل القصّة عن واقع الأقوام الغابرة، فيؤثّر في نفس المتلقّي لاستخدامها ألفاظا ذات دلالات مختلفة الكلّ يعبّر عن معناه. قلا تجد تكرارا للمعاني بل التجديد مما يزيد النص القرآني جمالا وإيقاعا، ويستجلب السامع فيطلب المزيد بغية الاطّلاع على الحقائق.

وما جعل الإيقاع القرآني ينفرد عن غيره هي ظاهرة الترقب لدى المتلقي، فطرق التعبير المتّبعة تكسّرها بإظهار الأغراض التي يريد النص النفاذ بها إلى النفوس. وبهذا يضع الإيقاع القرآني السامع أمام مشاهد فنية ترفع عنه اللبس.

إنّه في القرآن وسيلة من وسائل التعبير، يستخدم الكلمات والمعاني للوصول إلى مقاصد متنوعة تخرج المتلقّي من عالم ضيق إلى عالم متميّز بدقّة التعبير الفنيّ الذي سهّل طريقة إدراك جماله "إنّ القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الإفراد إلى حد الآحاد. وهذا أمر عجيب تبين فيه الفصاحة، وتظهر فيه البلاغة ويخرج به الكلام من العادة ويتجاوز العرف.

2 مقاصد الإيقاع ودوره التصويري في ضوء نماذج قرآنية:

الإيقاع في القرآن الكريم علامة من علامات الإعجاز يتمثّل في أسلوبه الفريد، يؤدي وظائف جمالية مختلفة "إنّ الأثر الممتع للإيقاع ثلاثي: عقلي جمالي نفسي. أمّا عقليا فلتأكيده المستمر أنّ هناك نظاما ودقة وهدفا في العمل. وأمّا الجمالي فإنّه يخلق جوا من حالة التأمل الخيالي الذي يضفي نوعا من الوجود الممتلئ في حالة شبه واعية على الموضوع كله. وأمّا نفسيا فإنّ حياتنا إيقاعية: المشي والنوم والشهيق الزفير وانقباض القلب وانبساطه.

واستعمل القرآن الإيقاع الملائم لطبيعة كل سورة حسب المعاني منها الحزين، البهيج، البطيء، السريع. وهذه الصور لابدّ أن تظهر في طريقة الأداء. والإيقاع يبرز بواسطة التلاوة، فلا تتماثل المواقع التي يذكر فيها اسم الرحمة والعذاب، فالقارئ يجد نفسه أمام ما تعرضه الآيات القرآنية من مضامين تتجاوب مع الموقف المسبب لهذا التلوين الصوتي.

فالقراءة الصحيحة للقرآن يجب أن تعبّر عن التغاير بين القراء حتى تفصح عن مقاصد الآيات. ويظهر دوره في عرض نماذج لعدد من الآيات التي نبيّن من خلالها ملامح هذه الظاهرة الصوتية.

فعند قوله تعالى: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ) "غافر: 18"، فالألفاظ التي تتألف منها هذه الآية تنسجم مع المعنى والجو الذي يدور في إطاره النص تتحقق صورة الحزن. ونلاحظ تردد أصوات تشير إلى الرعب والوعيد فكلمة (أنذر والآزفة) تدلان على صوت الأسى والتهديد، فإيقاع الكلمات يشعر بعمق المضمون وحقيقة المشهد. فقد نقل لنا صورة اجتمعت فيها أسباب الوعيد "تجد البناء التعبيري قويا بجملته وتفصيله، بحيث نجد بالأصوات زاجرة زجر ما تحمله من معاني، فالشكل والمضمون وحدة متفقة السمات والخصائص.

كذلك عند قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىَ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) "الزمر: 68"، في الآية موقف عنيف فيه فزع يحوي ملامح الاستسلام والإذعان. هناك تناسق بين المضمون والجو، الموقف مؤثر إيقاعه يبعث مؤثرات تصول في أغوار النفس، ومصارع البشر، وفي عالم القيامة "تجد قوة الأداء مستمدة من شدة الحروف وتتابع المقاطع القصيرة وكثرتها حتى يشعر سرعة أدائها بسرعة النفخ والصعق ثمّ النفخ والقيام الذاهل في ينظرون.

كما يلعب الإيقاع دورا هاما في مقام الدعاء بنوعيه وقد حفل القرآن الكريم بهما فعند قوله تعالى: (رّبّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ تَبَاراً) "نوح: 2"، فالآية بنسيجها الصوتي تصورّ الضلال والزيغ وما يولده من إحساس يؤدي المعنى الحقيقي، فما كان على نوح عليه السلام إلا إن يتوجّه إلى الله بدعاء متّسم بإيقاع عنيف تنتابه موسيقى مهيبة. فالتعبير صادر عن بشر مرسل جاهد كثيرا وعانى طويلا.

فإيقاع المفردات يحمل بيانا دقيقا على صبر نوح وعناد قومه، فنلمس تعبيرا بديعا وتصويرا فريدا يخلق في النفس التجاوب مع اللهجة المؤثرة عن نوح عليه السلام، وإدراك أطماع القلوب الداعية. وهذا الإيقاع يجعل القارئ يعيش مع المشاهد، وينتقل من مفردة إلى أخرى دون عناء رابطا بداية الآية بآخرها. وقد طغى على التعبير توازن ذو نغمات معبرة، وبالمقابل نجد دعاء لطيفا على لسان زكريا عليه السلام قال تعالى: (قَالَ رَبّ إِنّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنّي وَاشْتَعَلَ الرأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبّ شَقِيّاً) "مريم: 4"، إيقاع الآية مَرِن يعكس حكمة زكريا ويبعد عنه العقدة رغم أنّه كان محروما من الولد، ويجعل ألفاظ النص واسعة الدلالة اجتمعت واتسعت لتعبّر بإيضاح عن قصد هذا النبي الكريم.

فطريقة الدعاء مليئة بالتواضع فتحققت روعة الإيقاع في استعمال التصوير الدقيق، والمنطق المقنع عن طريق الدعاء الذي قرّب المعنى إلى الذهن فتمتلكه حاسة النظر في الصورة التي ارتسمها القرآن لشخصية زكريا، فتثير في النفس الإعجاب بعظمة نفسه وكمال عقله، فالإيقاع في هذا المقام ربط بين ضعف المخلوق وقدرة الخالق.

كما للدعاء إيقاع آخر في بعض مواقف الصالحين فعند قوله تعالى: (رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ رَبّنَا إِنّكَ مَن تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رّبّنَا إِنّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبّكُمْ فَآمَنّا رَبّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفّرْ عَنّا سَيّئَاتِنَا وَتَوَفّنَا مَعَ الأَبْرَارِ) "آل عمران: 191-193"، لعب هذا التلوين الصوتي دوره في إبراز الصّلة بين الآيات الكونية المعروضة للعقول وبين هذا الدعاء المشحون بالرعشة والخوف "هي لفتة عجيبة إلى

محاضرات مادة التصوير الفني في القرآن الكريم – سنة ثانية ماستير لغة ودراسات قرآنية - للأستاذ الدكتور قويدر قيطون

تداعي المشاعر عند ذوي الأبصار. ثمّ تنطلق ألسنتهم بذلك الدعاء الطويل، الخاشع الواجع الراجف المنيب، وما يلاحظ أنّ تكرار كلمة (ربنا) ينبعث منها الحياء من الله حين تذكر الخوف مما يثير في الأفئدة الرقة والورع. فخواتم الآيات متّحدة في الإيقاع، فمعانيها توحي إلى مشاهد الندم، والتأمل في بدائع الله يليق بدعاء عميق النبرات درجته عالية النغم تعكس طبيعة الدعاء والتضرع.

وكذلك من مواطن العلاقة بين الإيقاع والدعاء قوله تعالى: (وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ) "الأحزاب: 67"، "قرأ ابن عامر ويعقوب سادتنا جمع الجمع للدلالة على الكبر .إنّ ألفاظ الآية تعكس إيقاعا مميزا صادرا عن نفوس منيبة إلى الله لكنّها متحسّرة ناقمة على وجهائهم الذين أضلوهم. فالتعبير هنا يصور موقفا يائسا أليما يبوح عن إيقاع مؤثر أمام فئة ضائعة لا استجابة لها، مصورا الذّم الذي استحوذ على قلوبهم حين علموا أنّ الأوان قد فات.

كما وردت في القرآن مشاهد تصور مصير البشر يوم القيامة، واختلاف الإيقاع بينهما قال تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوَاْ إِلَىَ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىَ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ بَلَىَ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) "الزمر: 71"، هذا مصير الكفرة فهم اليوم في خزي، إنّها حقيقة عميقة ينقلها القرآن الكريم في كلمات محدودة متكاملة في اتجاه واحد، لطيفة السياق اختار لها مقاطع مؤتلفة المعاني مرتبطة بإيقاع من بدايته إلى نهايته، إيقاع يحمل صور التهديد الخفيّ بسوء العاقبة، يظهر هيئة العصاة في تعبير عجيب.

وبالمقابل هناك مشهد تخفق له الأفئدة وتطمئن إليه الأرواح قال تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىَ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) "الزمر: 73"، في هذه الآية تجاوب الكلمات فيها نبرة لينة ورأفة يضفيها الموقف. فخطاب الله لهذه الفئة امتاز بالتشريف والتعظيم، واحتلت كل كلمة مكانها المناسب، وارتبطت بغيرها من الكلمات، واختار التعبير الخاص عن المعاني التي يراد إثباتها في ذهن السامع يخلق جوا نفسيا منفرد.

ومن خصائص القرآن الكريم التأكيد فتتعد الفكرة مرارا لتثبيتها في العقول والقلوب، ويلمس ذلك تكرار الأخبار بغية التأثير، ويكثر ذلك في القصص القرآني مثل قصة موسى عليه السلام، فالإيقاع يلعب دوره في ظاهرة التكرار الذي تعد من مظاهر الإعجاز القرآني لما له من أثر في تقوية الأسلوب وتجلية البيان واستحداث التجديد "الكلام المكرر المعاد هو الفصاحة كلّها حواها من أطرافها، وإذا هو الحس كلّه، جمعه من جماع وجوهه.

وفي موقع آخر غير القصص نجد التكرار جوهر السياق من ذلك سورة الرحمن في قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) "الرحمن: 13"، فالإيقاع صدر بلون جديد من خلال النغمات التي توقظ المشاعر، وتستميل الملكات لأنه خارج عن المألوف لا يتغيّر نمطه يألفه القارئ والمتلقي إيقاع سما إلى الأعلى إنّه تعقيب ينفع المعنى، ويؤكده دون أن يخل بنسق القرآن، فأثره يتجلى في عرض آلاء الله، ويرسم صورا كونية ناطقة بمشاهد الوجود "تحديا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعدها ويفصلها، ويجعل الكون كله معرضا لها، وساحة الآخرة كذل

وعند قوله تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) "المرسلات: 15"، تكررت هذه الآية عشر مرات فيها لفظ يقرع الذين تربصوا بالقرآن الكريم بإيقاع صاخب يرعب القلوب "إنّ امتداد هذا الصوت من أول السورة إلى آخرها دون أن يتغير وجه الصارخ، أو تختلف نبراته، فيه تمكين لهذا الصوت أن يزلزل النفوس، ويملأ القلوب فزعا وهلع، هذا التكرار يعد لازمة تذكر التعقيب يحمل إيقاعا عنيفا يعطي السياق ميزة خاصة، فيه حس جاد يجد القارئ نفسه محصورا بين إيقاعات بنفس الشدة.

كذلك تكرار الحروف ينتج عند إيقاع فريد لا نجده إلا في القرآن الكريم لانتقائه النسيج الصوتي للألفاظ التي تتألف منها الجملة فعند قوله تعالى: (قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىَ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) "هود: 48"، فكلمة (أمم ممن معك وأمم) اشتملت على سبع ميمات فعند التلاوة يزداد العدد عن طريق الإدغام. فاجتماع هذه الميمات تولد إيقاعا مؤثرا في نفس السامع لتحقيق المعنى، وهو الصورة التي كان عليها نوح عليه السلام ومن معه "يريد أي القرآن أن يخلق في نفسك التجاوب النفسي مع هذه الصحبة المباركة وأن يخلق في نفسك الإحساس برضا الله عليهم، بأن يولد في نفس كل مستمع الإحساس الشديد بالضم والالتصاق بمجردات يلتقط سمعه هذه الميمات المتضامنة الملتصقة".

كذلك عند قوله تعالى: (وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) "يوسف: 65"، ما يلاحظ أنّ الواو وردت خمس مرات، وتكرارها من جهة الإخوة لاستجلاب فؤاد أبيهم لعله يكفر عنهم ما فعلوه بيوسف عليه السلام، وبالمقابل حتى يسمح لهم

بأخذ أخيهم معهم إلى مصر. ورغم حرف الواو موزع في ثنايا الآية إلا أنّها متقاربة ولا نحس بتفرقها، وهذه المتعاطفات تشكّل نسيجا متكاملا يتّسم بالمرونة، ويحمل دلالة قويّة.

فهذا التكرار الصوتي يحدث إيقاعا فرضته صيغة التركيب، فتوظيف الألفاظ المقرونة بالواو من بينها يكسب السياق نغما بديعا.

كما تؤدي الصيغ التعبيرية دورا كبيرا في انتشار الإيقاع في القرآن الكريم فعند قوله تعالى: (لأعَذِّبَنّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأذْبَحَنّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنّي بِسُلْطَانٍ مّبِينٍ) "النمل: 21"، إنّ الأفعال قد انتهت بنون التوكيد الثقيلة وهي قراءة الجمهور، وهذه النون من أحرف المعاني توحي إلى التأكد، ورفع الشك وهي مقرونة باللام الواقعة جوابا للقسم، وفي هذا الموقع أحدثت إيقاعا يعكس غضب سليمان عليه السلام.

وعند قوله تعالى: (وَلَئِن لّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنّ وَلَيَكُوناً من الصّاغِرِينَ) "يوسف: 32"، فصيغة (ليسجننّ وليكونا) هناك تناسب في الإيقاع ما بين الكلمتين بنون التوكيد الثقيلة والخفيفة والوقف عليها. فهذه النون بنوعيها المسبوقة بالقسم أضفت على الجملة نغما يوقظ النفوس التائهة بالعودة إلى ربّها، كما كشف لنا عن طبيعة المقام. فالإيقاع رسم لنا صورة المرأة وهي مشدودة إلى عرض الحياة الدنيا في أزهى حالة، إنّها في موقع تجد ما تشتهي، ولكنّها مع يوسف عليه السلام بهذا الإيمان والعفّة لم تحصل على غرضها. فهذه الآية أكثر إيحاء في تصوير ما وراء الواقعة من بلاء.

كما كان لبعض الألوان البديعية باعثا على الإيقاع فعند قوله تعالى قال تعالى: (قُلْ يَأَيّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) "الكافرون: 1"، القرآن استخدم هذه المقابلات بأشكال مختلفة ليضع منهجا واضحا يفرّق بين الكفر والإيمان. هذا التقابل أحدث إيقاعا يميّز بين النفس الضالة في موقف الضعف والعجز، والنفس العارفة ما يجري في هذا الكون عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، فالإيقاع عنيف يناسب القلوب المريضة.

ومن الإيقاع التقابلي قوله تعالى: (قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلّ مَن تَشَاءُ) "آل عمران: 26"، "فالعنصر الجمالي في الطباق ما فيه من تلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، فصورة الإيقاع هنا توحي إلى حقيقة القوامة فقد استجلب الإحساس بالمالكية لله.

فالبديع بألوانه يمنح السياق حس هذه الظاهرة الصوتية، فلا يمكن أن ندرك القيمة الإيقاعية إلا بواسطة التلاوة الصادقة التي تبعث الذوق، والتلذذ بالمعاني، وجمال التعبير، وهذا لا نجده إلا في القرآن الكريم.

ومن مظاهر الإيقاع صيغة بعض الكلمات ففي كتاب الله نلمس في أسلوبه استعمال كلمات على صيغة واحدة مثلا كلمة (اللب) لم يوظفها القرآن مفردة وإنّما جمعا قال تعالى: (هَذَا بَلاَغٌ لّلنّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُوَاْ أَنّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذّكّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) "إبراهيم: 52"، فالجمع أسهل في النطق وإيقاعها فيه عذوبة، ونفس الشيء مع كلمة كوب.

وبالمقابل كلمة الأرض وردت مفردة ولو جاءت جمعا لوقع خلل في الإيقاع، فكلّ صيغة من هذه الصيغ وضعت في مكانها المناسب "ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف نفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي."

فالإيقاع من مقام إلى آخر يخضع لطبيعة الأغراض، ويتّسم بطابع التحدّي المثير للعرب وتكمن أهميته في التعبير عن الموضوع بأسلوب جديد جامع يستغني عن الذكر.

إنّه ظاهرة صوتية وصورة نطقية تؤخذ من قراءة القرآن، فالنغمات المترتبة عنه مختلفة تؤدّي معاني متباينة تتفق مع وجوه التفسير ودقّة اللغة. فيه النظم الرباني كونه أمرا لم يألفه العرب من قبل وعجزوا عنه من بعد. جاء به القرآن لما فيه من جمع اللفظ والمعنى دون تناقض، وفيه أصل الفصاحة في تنويع الأساليب وأشكال التعبير هذا يعكس غرائب الدلالات الغائبة عن عقول البشر، وهو مع ذلك يؤدي ذلك الجانب التصويري المذهل الذي يتسق مع فن هذا الخطاب المتميز.